القرآن الكريم معجزة النبي الخالدة

منهج كامل لهداية الإنسانية

إعداد الأستاذ

د/ محمد بحيري إبراهيم

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بالكلية

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، والصلاة والسلام على أفضل خلقه، وخيرة أنبيائه ، وصفوة رسله ، سيدنا محمد النبي الأمي الذي أرسله ربه رحمة للعالمين ، وهادياً للخلق أجمعين ، ورضى الله عن أصحابه والتابعين ، وعن كل من اهتدى بهداه وسلك طريقه المستقيم إلى يوم الدين ...

أما بعـــد :

فإن القرآن الكريم هو كتاب الله المبين ووحيه الصادق الكريم ، أنزل به جبريل الأمين ، على قلب خاتم النبيين ، وإمام المرسلين سيدنا محمد ﷺ . ليكون آيته الباقية ، ومعجزته الخالدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

وإذا كان هذا الكتاب العزيز قد حمل أدلة نبوة رسول الإسلام العظيم سيدنا محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ، وكان معجزته العظمى وآيته الكبرى فقد أيد الله تعالى رسوله الكريم بمعجزات كثيرة غير القرآن إلا إنها كانت في أوقات خاصة ، وأحوال خاصة ، نقل بعضها بطريق التواتر ، وبعضها بطريق فيه معنى التواتر أو نقل بطريق الآحاد .

أما معجزة القرآن ، فهي المعجزة العامة ، حيث كانت للثقلين جميعا ،

الباقية بقاء الدهور والأزمان . ومما يدل على اعتباره المعجزة الكبرى لرسول الإسلام وبناء أمر نبوته عليه آيات كثيرة فى القرآن الكريم . نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر .

١ — قوله تعالى : (الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد)(١)

ووجه دلالة هذه الآية الكريمة : أن الله سبحانه أخبر أن القرآن أنزل ليقع به الاهتداء ، ولا يقع هذا الاهتداء إلا إذا كان حجة ، ولا يكون حجة إلا وهو معجزة

٢ — وقوله تعالى : (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه(٢) .

ووجه الدلالة فى هذا النص الكريم : أن الله سبحانه رتب الأمن والاطمئنان على سماع القرآن ، فكان بذلك حجة ، ولا يكون حجة إلا وهو معجزة .

٣ — وقوله عز من قائل : (وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين) (٣)

ووجه دلالة الآية على أن القرآن معجزة ، أنه سبحانه جعله علة لإنذار الرسول صلى الله عليه وسلم به ، ثم أفصح ذلك ببيان أنه نزل بلسان عربى مبين ،

---

(١) سورة إبراهيم (١)
(٢) سورة التوبة : (٦)
(٣) سورة الشعراء : (١٩٣ ، ١٩٥)

ولولا أن كونه بهذا اللسان حجة ، لما عقب به كلامه الأول ، فثبت بذلك كون القرآن معجزة كبرى لرسول الإسلام محمد ﷺ .

وإذا ثبت بذلك كون القرآن معجزة ، فكيف كان إعجازه ؟

وقبل أن نبين كيف كان إعجاز هذا الكتاب العزيز ، ينبغي أن نقف قليلا أمام المعجزة في حقيقتها ومدلولها فنقول وبالله التوفيق :

من مخلوقات الله القوى القادر هذا الكون الفسيح بأرضه وسمائه وماجعل فيهما من مخلوقات لايعلمها إلا هو ، اشتملت هذه المخلوقات على الأحياء والجمادات والأحياء منها مايعقل ومنها مالا يعقل والجميع يسيره الله على سنن قد سنت ونظم قد أحكمت وارتباط بين الأسباب والمسببات لايتخلف بحال من الأحوال .

وإن تخلفت المسببات عن أسبابها ، ووجدت الأمور منفكة عن علاتها ، كالولد يولد من غير أب ، وكالحركة تجيء من جامد لايتحرك كعصا مثلا ، ونار تتعطل وظيفتها وقد أوقدت . إذا حصل ذلك الانقطاع بين الأسباب ومسبباتها حكم العقل بأن الذى فعل ذلك إنما هو فوق الأسباب العادية ومسبباتها ولو سار العقل منطقه إلى أقصى مداه فإنه لاشك واصل إلى أن الذى خرق العادات وخالف أسبابها ومسبباتها لابد أن يكون خالقها وموجدها . وواصل أيضاً إلى أن خرق هذه العادات لإنسان ما لابد أن يكون لغاية هي بيان صدق هذا الإنسان فيما يدعيه وأن معلوماته ومعارفه يستمدها من ذلك الخالق الحكيم ، المسيطر على كل شيء ، الذى يفعل مايريد ولا يقيده نظام خلقه ، ولا عادات أوجدها .

لذلك كان الأمر الخارق للعادة حجة الصدق لمن يدعى أنه يتكلم عن

الخالق الحكيم سبحانه الفعال لما يريد لأنه لايغير العادات ولا يفصل بين الأسباب وبين مسبباتها سواه .

وإن الصادق يعلن دعواه ، ويقدم هذا البرهان الخارق برهانا عليها ، ويتحدى الناس أن يفعلوا مثله ، ويسمى هذا الخارق فى تلك الحال (معجزة)

ومن هنا عرف العلماء المعجزة : بأنها الأمر الخارق للعادة الذى يدعى به من أجرى على يديه أنه نبى من عند الله ويتحداهم أن يأتوا بمثله إن كانوا صادقين . وهذه المعجزة إما أن تكون مادية أو عقلية لاتدرك بالحس

فالمعجزة المادية : تتحدى بنفسها مع ادعاء الرسالة ، فإن النار لاتنطفىء من تلقاء نفسها إذ يلقى فيها إبراهيم عليه السلام فتكون بردا وسلاما عليه فلا يحترق .

وكعصا موسى عليه السلام التى تحركت كأنها ثعبان مبين وليست سحرا كما أدرك الساحرون وكانوا أول المؤمنين .

وكإبراء عيسى الأكمه والأبرص بإذن الله ، وكإحياء الموتى بإذن الله فما كان له عليه السلام وقد ظهرت على يديه أمثال هذه المعجزات أن يطلب من قومه أن يأتوا بمثلها والقصور بين والعجز واضح . ومع ذلك فالتحدى قائم والعجز ثابت والحجة ماثلة وكان عليهم أن يؤمنوا بالحق إذ جاءهم .

والمعجزة العقلية : هى شىء قائم بذاته ثابت ، ولكن الإعجاز فيه أمر لايدرك بالحس والجوارح ، وإنما يدرك بالدراسة العقلية والفحص الفكرى وقد يدعى بعض المغرورين أنه يستطيع أن يأتى بمثله وماهو بمستطيع ولكنها اللجاجة والمباهتة المناقضة للحقائق

وأن ذلك يكون فى المعجزة التى تكون من نوع الكلام ، وهى معجزة

القرآن الكريم ، فقد كان الغرور يوم بعض المخاطبين بهذا القرآن العظيم أن عندهم القدرة على الإتيان بمثله ، فكان لابد من كشف هذا الغرور وإزالة تلك الأوهام الباطلة ، ليتبين وجه الحق ، ولذلك طالبهم الله تعالى بأن يأتوا بمثله إن كانوا صادقين فقال تعالى « فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين(١) .

وقوله تعالى « فأتوا بسورة مثله »(٢) ثم طالبهم الله عز شأنه أن يأتوا بمثل بعضه بعد أن عجزوا عن الإتيان بمثل جميعه فقال تعالى « أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين(٣) .

ثم طالبهم سبحانه إمعانا فى التحدى وإبعاداً فى التعجيز أن يأتوا بمثل سورة واحدة ولو قصيرة فقال وقوله الحق « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبادنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين(٤) .

ثم قرر سبحانه بما لا يدع ريباً لمرتاب أن البشر عاجزون عن أن يأتوا بمثله أو بمثل بعضه ، وأن هذا العجز باق إلى يوم الدين فقال تعالى « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً »(٥) .

---

(١) سورة الطور (٣٤) .

(٢) سورة يونس (٣٨) .

(٣) سورة هود (١٣) .

(٤) سورة البقرة (٢٣) .

(٥) الإسراء (٨٨) .

ومن هنا كان القرآن الكريم المعجزة الخالدة التى تتحدى الأجيال، كلها على مر الدهور والأزمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين لا تنال منه الأراجيف ، ولا يهز أما الشبهات والمزاعم الباطلة .

إنه حجة الله البالغة على خلقه ، وهو حجة النبي ﷺ فى رسالته ، وسجل الشريعة المحكم فى بيانه ، وهو المرجع عند الاختلاف والحكم العدل عند الافتراق ، وهو الطريق المستقيم المرشد عند الاعوجاج من سلكه وصل ، ومن لجأ إليه اهتدى .

وقد جاء فى الحديث الشريف الذى رواه على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ستكون فتن كقطع الليل المظلم ، قلت يا رسول الله وما المخرج منها قال : كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ من قبلكم وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يمله الأتقياء ، ولا يخلق(١) على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد ، من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم . . .(٢) .

وهذا الحديث الشريف إن دل على شىء فإنما يدل على منزلة القرآن فى الإسلام ، وأنه العصمة من الزيغ ، وأنه المرجع المتبع ، وأنه يشتمل على

---

(١) يخلق بفتح الياء وفتح اللام وكسرها من خلق الثوب إذا بلى ، أى لا تمل قراءته فى أى وقت من الأوقات ، بل تروق وتحلو .

(٢) رواه الترمذى جـ ٥ ص ١٧٢ باب ما جاء فى فضل القرآن .

شرائع الإسلام كلها ، وأنه بذلك هو الحكم بين الناس الذى لا يعدل حكمه ، وأن من تركه من جبار قصم الله تعالى ظهره ، وأنه لا تتشعب الآراء فى حقيقته إذا استقامت الأفهام ولم تضل المدارك .

فيه حكم الأمور كلها ما وقع وما لم يقع ، وكل ما فيه حق ، وهو مصلحة الدنيا والأخرى ، فما من خير إلا وله فى القرآن أصل معتمد ، ونص يمكن الحمل عليه قال تعالى « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » وفيه عبر الماضين وأخبار كل النبيين ، فهو الكتاب الكامل الذى حوى معانى كل الكتب المنزلة على الرسل قبله ، وفيه المثلات المرشدة ، والعظات الموجهة ، والآداب السامية ، والسلوك القويمة للخلق أجمعين .

وفيه الدعوة إلى العلم بكل ضروبه ، علم الإنسان ، وعلم النفس ، وعلم الكون ، والدعوة إلى علم بالنجوم ومسالكها ، والسموات وأفلاكها ، والأرض وطبقاتها .

خاطب الله تعالى بهذا القرآن أولياءه فعرفوه ، وأصحاب العقول المستقيمة فادركوه ، وكان حقا كما قال تعالى « ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعا »(١) .

ذلكم هو كتاب الله تعالى بما حمل من معان وتكاليف ، وما كساه الله تعالى به من روعة ، وتشريف ، وهو كما وصفه منزله تعالى بقوله عز شأنه : (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد)(٢) .

---

(١) سورة الرعد (٣١)

(٢) سورة الزمر (٢٣)

فاستحق القرآن الكريم بذلك كله أن يكون المعجزة الكبرى، بل أعظم معجزات النبي محمد ﷺ رسول الإسلام وخاتم النبيين.

• • •

بقي أن نعرف،

لماذا كانت معجزة النبي ﷺ معنوية عقلية ؟

للإجابة عن هذا السؤال نقول وبالله التوفيق.

أن بعض العلماء يقول: إن كل معجزة جاءت مناسبة العصر الذي أرسل فيه صاحب هذه المعجزة، وذلك لكي تكون هادية مرشدة، ويكون خرقها للعادات الجارية أوضح وأظهر، ومناسبتها لرسالة النبي المبعوث دليلا على كمال رسالته، وقد نخالفهم في بعض ماذكروا أو نوافقهم.

فنرى أن ابراهيم عليه السلام جاء في قوم كانوا على مقربة من عبدة النار، فكان سلب الله النار خاصية الإحراق لما بداخلها من غير سبب ظاهر بيانا بعجز النار التي تعبد من دون الله تعالى.

وكذلك نوافقهم في أن معجزات موسى عليه السلام كانت مناسبة لأهل العصر.. لأن السحر والكهانة كانا فيهم، وقد كان للسحرة مكانة عندهم، وبقية المعجزات كانت متعلقة بالزرع وآفاته، وهم أهل زرع وضرع من أقدم العصور، كما قال تعالى: «فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات، فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين، ولما وقع عليهم الرجز قالوا ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك

لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل، فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون (١) .

هكذا كانت تسع آيات حسية مناسبة لأهل مصر وبنى اسرائيل فكانوا يقولون أنه سحر، واقرأ قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم، فقال له فرعون ، أنى لأظنك ياموسى مسحوراً ، قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لأظنك يافرعون مثبوراً » (٢)

هذه معجزات ابراهيم وموسى عليهما الصلاة والسلام وهى مناسبة لزمنهما ، وكذلك معجزة عيسى عليه الصلاة والسلام كانت مناسبة لعصره ، لا لأن عصره شاع فيه علم الطب كما يقول بعض علماء الكلام ، لأن علم الطب لم يكن رائجا بين بنى اسرائيل ، فلم يكن بينهم علم أبقراط ، كما قرر رينان فى كتابه « حياة يسوع » بل لأن معجزاته كانت من ذلك النوع لسبب آخر يجب أن نلتمسه من شئون التاريخ ، ومن حال بنى اسرائيل ، ذلك أن العصر كان عصراً ماديا يؤمن بالمادة ولا يؤمن بالغيب ، بل كان من اليهود من لا يؤمن باليوم الآخر ، وإنك لترى أن التوراة التى بأيدينا ، وهى ميراثهم من التوراة التى حرفت ، تقرر أن نفس الانسان هى دمه .

وكان بجوار هذه الروح المادية التى سادت بنى اسرائيل استجابة لما هو سائد فى عصرهم الرومانى الذى كان يؤمن بالمادة إيمانه بالأسباب العادية والمسببات ، بحيث يعتقدون أنه لا يمكن أن ينفك السبب عن مسببه ، واللازم عن ملزومه ، فلا توجد نتائج من غير سبب عادى ، فقد عجزت الأسباب عن أن ترد حيا ، من يموت ، وعجزت الأسباب عن أن ترد بصيراً من يولد أعمى .

---

(١) الأعراف : (١٣٣ — ١٣٥)

(٢) الاسراء : (١٠١ — ١٠٢)

لقد سادت الفلسفة الأيونية ، والفلسفة اليونانية التي تقرر لزوم الأسباب العادية ، حتى لقد فرضوا أن الأشياء نشأت عن الخالق لها بقانون السببية ، فقالوا أن الكون نشأ عن المنشيء الأول نشوء المسبب عن سببه بلا إرادة مختارة منشئة لقد قرروا أن قانون الأسباب هو الذى يحكم كل شيء .

لذلك كانت معجزات عيسى عليه السلام متضمنة الرد والتنبيه فى أمرين.

أولهما : بيان سلطان الروح ، فقد ظهرت الروح مسيطرة موجهة مرشدة فى أنه كان ينبئهم بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم ، وفى أنه عليه السلام أحياء الموتى وأخرجهم من قبورهم بإذن الله ، وأنزل عليه مائدة من السماء بإذن الله تعالى .

وثانيهما : أن معجزاته عليه السلام كانت هادمة لارتباط الأسباب العادية بمسبباتها ، فقد ولد هو عليه السلام من غير أب، والأسباب العادية تقرر أنه لامولود من غير والد ، وتكلم فى المهد صبيا ، وذلك غير المقرر فى الأسباب والمسببات، وأخبر عن بعض المغيب عنه، وذلك غير الأسباب العادية التى توجب المعاينة فى صدق الأخبار ، وأحيا الموتى بإذن الله ، وذلك ما لا يتحقق فى الأسباب العادية .

وهكذا نجد معجزات عيسى عليه السلام ورسالته كانت إيقاظا شديدا لعصره وتنبيها لمكان الروح ، وسلطانها ، وبيانا لقدرة الله تعالى ، وأنه الفعال لما يريد ، فكانت رسالته ومعجزاته مناسبة لعصره (١)

---

(١) أنظر المعجزة الكبرى: للشيخ محمد أبو زهرة ص٧ ومابعدها بتصرف

معجزة القرآن

وكل معجزات الأنبياء : إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم سواء أكانت مادية فى كونها ، أم كانت متضمنة معانى روحية — كانت من النوع الذى يحس بالرؤية ويكون . من بعدها التأمل ، وليس من النوع الذى يكون بالتأمل ، أولا يدرك إلا بالتأمل ، وأن كان قائما ثابتا فى الوجود من وكانت حوادث تقع ، ولا تبقى ، ولا يبقى منها إلا الإخبار بها ، فلا يعرفها غير ريب ، على اليقين إلا من عاينها .

ولكن معجزة محمد عليه السلام كانت من نوع آخر ، لم يكن حادثة ، تقع ، وتزول من غير بقاء لها إلا بالخبر ، بل كانت قائمة تخاطب الأجيال ، يراها ويقرؤها الناس فى كل عصر ، ونقول أنها مناسبة لرسالة النبى محمد ﷺ ، لعمومها فى الأجيال ، ولمكانته بين الرسل ، ومقامه فى هذا الوجود الإنسانى إلى يوم القيامة .

إن معجزات الأنبياء السابقين لا يعلم وقوعها على وجه اليقين إلا من القرآن ، فهو الذى سجل معجزات نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، ولولا أنه سجلها ما علمها الناس ، وإذا كانت بعض الكتب القائمة اليوم ذكرت بعضها فقد ذكرته مشوبا بأمور غير صادقة كإخبارهم بأن لوطا كان مخمورا فوقع على ابنتيه ، وما يكتب فيه مثل هذا عن بعض النبيين لا يمكن أن يكون مقبول الخبر عن سائرهم ومعجزاتهم .

ونقول إن معجزة محمد ﷺ كانت القرآن :

ومع ذلك فقد أجرى الله تعالى على يديه خوارق عادات أخرى ، مثل : إخباره عن بعض ما يغيب عن حسه ، ومثل حنين الجذع اليه ﷺ ،

ومثل الإسراء والمعراج . إلا أنه عليه السلام لم يتحد إلا بالقرآن

الكريم ولم ير المشركون العرب آنذاك صرحا شامخا يتحداهم به سوى القرآن الكريم فما السر فى ذلك؟

وهنا نترك الإجابة عن هذا التساؤل للقاضى عياض حيث يقول : فى كتابه الشفاء: بتصرف .

ولقد خص الله هؤلاء العرب آنذاك من البلاغة والحكم مالا يخص به غيرهم من الأمم ، وأوتوا من ذراية اللسان مالم يؤت أنسان ؟ ومن فصل الخطاب ما يقيد الألباب وجعل الله لهم ذلك طبعا وخلقة ، يأتون على البديهة بالعجب ويرتجزون به بين الطعن والضرب ، ويمدحون ويقدحون فيأتون من ذلك بالسحر الحلال ، فيخدعون الألباب ويذللون الصعاب ، ويحرضون الجبان .

منهم البدوى ذو اللفظ الجزل ، والقول الفصل ، والكلام الفخم ;

ومنهم الحضرى (أى الساكن المدن) ذو البلاغة البارعة والألفاظ الناصعة والكلمات الجامعة ، والطبع السهل ، والتصرف فى القول ، القليل التكلفه ، الكثير الرونق ، الرقيق الحاشية الخ ماذكره القاضى عياض فى بيان بلاغة العرب ، ومقدار إدراكهم لجمال الكلمات فى رتبتها ، كما يدرك البصير فى رؤية الحلى الكريمة غير الزائفة من بين مايعرض له .

تلك كانت حال العرب فى جاهليتهم ، كانت جهلا بالدين مع بقايا ملة إبراهيم عليه السلام ، وليسوا جهالا بالبيان ومعرفة أسرار البلاغة ، يدركونه بلحظ الحال ، لا بإمعان عقل وطول تفكير .

وذلك كان المناسب لحال هؤلاء الذين تلقوا دعوة محمد رسول الله ﷺ ، وخاطبهم القرآن الكريم ابتداء أن تكون المعجزة من النوع الذى يحسنونه ، ليعرفوا مقدار علوه عن الطاقة .

فمعجزة القرآن بلا شك تناسبهم فوق مناسبتها لموضوع الرسالة وعموم أزمانها، وخلودها الى يوم القيامة، فهو الحجة ما بقيت الشريعة، وهو قائم على العرب والعجم إلى يوم الدين، المعجز الحق أجمعين.

أما هداية القرآن:

فإنه يمكن القول بأنها إحدى الغايتين اللتين هدف إليهما هذا الكتاب الكريم أما الغاية الثانية فهى (الإعجاز) فمن أجل هذين المطمحين نزل القرآن العظيم، وفيهما تحدث، وعليهما دل.

وكانت للقرآن العظيم طريقته الخاصة فى عرضه للهداية والإعجاز على بنى آدم فإنه فى هذا السبيل قد حاكم الناس إلى عقولهم، ولفت أنظارهم إلى الكون وما فيه من سماء، وأرض، وما تحويانه من عوالم ومخلوقات، وما يتميز به كل عالم من ظواهر وخصائص ونواميس وسنن. قال تعالى (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض)(١).

وقال تعالى (أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء)(٢).

وقال تعالى: (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق)(٣). وكان القرآن فى طريقة عرضه هذه موفقا كل التوفيق، بل كان معجزا غاية الإعجاز، لأن حديثه عن تلك الكونيات كان حديث العليم بأسرارها الخبير بدقائقها، المحيط بعلومها ومصارفها، على حين أن هذا الذى جاء بالقرآن

---

(١) سورة يونس (١٠١)
(٢) سورة الأعراف (١٨٥)
(٣) سورة العنكبوت (٢٠)

انما هو رجل أمي ، نشأ في أمة أمية جاهلة، لا صلة لها بتلك العلوم وتدوينها ولا إلمام له بكتبها ومباحثها ، بل إن بعض تلك العلوم لم ينشأ إلا بعد عهد النبوة ومهبط الوحي بقرون وأجيال ، وأنى يكون لرجل أمي كمحمد ذلك السجل الجامع لتلك المعارف كلها إن لم يكن تلقاه من لدن حكيم عليم . . ؟ قال تعالى : (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون ، بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون)(١) .

ولعل من الحكمة أن نسوق هنا نموذجين من هداية القرآن الكريم على سبيل المثال :

أولهما : من سورة النور حيث يقول سبحانه (ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار)(٢) .

وان الإنسان ليتملكه العجب حين يقرأ هذا النص الكريم الذي يتفق وأحدث النظريات العلمية في الظواهر الطبيعية من سحاب ومطر وبرق .

أما النموذج الثاني : فمن سورة القيامة حيث يقول عز شأنه مبيناً كمال قدرته على إعادة الإنسان وبعثه بعد موته (أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ، بلى قادرين على أن نسوي بنانه)(١) .

(١) سورة العنكبوت (٤٨، ٤٩)

(٢) سورة النور (٤٣)

(٣) سورة القيامة (٣، ٤)

فإن الإنسان ليقف مندهشا إذا ما تأمل الحكمة من تخصيصه سبحانه (البنان) وهو أطراف الأصابع بالتسوية في هذا المقام، ثم لا تلبث هذه الدهشة أن تتوارى وتزول حينما طالعنا الباحثون في العصر الحديث بما يسمى (علم تحقيق الشخصية) الذي يقرر أن أدق شيء وأبدعه في بناء جسم الانسان (هو تسوية البنان) حتى إنه لا يمكن أن يوجد بنان لأحد يشبه بنان آخر بحال من الأحوال رغم هذه الكثرة الكاثرة من بني آدم على طول الأرض وعرضها، وقد انتهوا من هذا القرار إلى أن حكموا البنان في كثير من القضايا والحوادث (فتبارك الله أحسن الخالقين)(١).

مميزات الهداية القرآنية:

وهداية القرآن تمتاز بأمور عديدة من أهمها ما يأتي:

١ — أنها هداية عامة.

٢ — وأنها تامة:

٣ — وأنها واضحة.

أما عموم هداية القرآن: فلأنها تنتظم الإنس والجن في كل عصر ومصر. قال تعالى (وأوحي إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ)(٢).

وقال جلت حكمته (وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها)(٣).

---

(١) سورة المؤمنون (١٤)

(٢) سورة الأنعام (١٩)

(٣) سورة الأنعام (٩٢)

وقال عز شأنه (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا)(١)،
وقال سبحانه: (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين، قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ياقومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم)(٢).

وأما تمام الهداية : فلأنها أرقى وأوفى ما عرفت البشرية وعرف التاريخ من هدايات الله والناس — إذا صح أن يكون للبشر هداية — وانتظمت كل ما يحتاج إليه الخلق في العقائد، والعبادات، والأخلاق، والمعاملات، على اختلاف أنواعها، وجمعت بين مصالح البشر العاجلة والآجلة، ونظمت علاقة الانسان بربه وبالكون الذي يعيش فيه، ووفقت بطريقة حكيمة بين مطالب الروح والجسد.

قال تعالى: (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون)(٣).
وقال تعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير)(٤).

---

(١) سورة الأعراف (١٥٨)
(٢) سورة الاحقاف (٢٩، ٣١)
(٣) سورة البقرة (١٧٧)
(٤) سورة الحجرات (١٣)

وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون)(١)

وقال عز وجل (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون)(٢) إلى غير ذلك من الآيات التى تنظم حياة الإنسان الروحية والمادية .

وأما وضوح هداية القرآن : فلأن القرآن الكريم قد عرضها عرضا رائعا مؤثرا توافرت فيه كل عوامل الإيضاح ووسائل الإقناع ، من أسلوب فريد معجز فى بلاغته وبيانه ، واستدلال بسيط عميق يستمد بساطته وعمقه من كتاب الكون الناطق ، وأمثال خلابة تخرج أدق المعقولات فى صورة من أجلى المحسوسات ، وحكم بالغات تبهر الألباب بمحاسن الإسلام وجلال التشريع ، وقصص حكيم يقوى الإيمان ويعمق اليقين ، ويهذب النفوس والغرائز ، ويصقل الأفكار والعواطف ، ويدفع الإنسان دفعا إلى التضحية والهمة ، ويصور له مستقبل الأبرار والفجار تصويرا يجعله كأنه حاضر تراه الأبصار فى رابعة النهار ، والأمثلة على ذلك كثيرة فى القرآن العظيم .

ومما يجدر التنبيه إليه فى هذا المقام أن الهدايات القرآنية الكريمة ، منها ما استفيد من معانى القرآن الأصلية ، ومنها ما استفيد من معانيه التابعة (الثانوية) .

أما القسم الأول : فواضح لا يحتاج إلى تمثيل ، وهو موضع اتفاق بين الجميع .

---

(١) سورة البقرة (١٧٢)
(٢) سورة الجمعة (١٠)

وأما القسم الثانى : ففيه دقة جعلت بعض الباحثين يجادل فيه ، ونحن هنا نوضحه بأمثلة استنتجها العلماء من فاتحة الكتاب العزيز منها :

١ — استفادة أدب الابتداء بالبسملة فى كل أمر ذى بال ، أخذا من افتتاح الله تعالى كتابه بها ، وافتتاحه سبحانه كل سورة من القرآن بها عدا سورة التوبة .

٢ — استفادة أن الاستعانة فى أى شيء لا تستمد إلا من اسم الله وحده أخذا من إضافة الاسم إلى لفظ الجلالة موصوفا بالرحمن الرحيم.

٣ — استفادة الاستدلال على أن الحمد مستحق لله بأمور ثلاثة :

الأول : تربيته تعالى للعالمين.

الثانى : رحمته الواسعة التى ظهرت آثارها وتأصل اتصافه تعالى بها .

الثالث : تصرفه وحده بالجزاء العادل فى يوم الجزاء ، وذلك أخذا من جريان هذه الأوصاف على اسم الجلالة فى مقام حمده بقوله سبحانه والحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين »

٤ — استفادة التوحيد بنوعيه : توحيد الألوهية ، وتوحيد الربوبية وذلك من القصر الماثل فى قوله سبحانه (إياك نعبد وإياك نستعين) .

٥ — استفادة دليل هذا التوحيد من الآيات السابقة عليه ووقوعه هو فى سياقها عقبها كما تقع النتيجة عقب مقدماتها .

٦ — استفادة أن الهداية إلى الصراط المستقيم هى المطمع الأسمى الذى يجب أن يرمى إليه الناس ، ويتنافس فيه المتنافسون ، يدل على ذلك

اختيارها والاقتصار على طلبها والدعاء بها ، ثم انتهاء سورة الفاتحة بها كما تنهى البدايات بمقاصدها .

٧ — أن الهداية لا يرجى فيها إلا الله وحده لأنها انتظمت مع آيات التوحيد قبلها سمط واحد .

٨ — استفادة أدب من الآداب ، وهو أن يقدم الداعى ثناء على الله تعالى قبل دعائه ، استنتاجا من ترتيب هذه الآيات الكريمة ، حيث تقدم فيها ما يتصل بحمد الله وتمجيده وتوحيده على ما يتصـــل بدعائه واستهدائه(١)

هذه نماذج استنبطت واستنتجت من سورة الفاتحة ولا تحسب أحداً يخاصم أو يجادل فيها بحال من الأحوال .

وفى هذا الصدد يكفينا بيان :

أن نظم القرآن الكريم باعتبار معانيه المستنبطة (الثانوية) يدل على هدايات متنوعة من (عقائد) و (أحكام) و (وآداب) و (أدلة) و (لطائف) وإن اختلف الناس فى إدراكها بمقدار اختلافهم فى المواهب والاستعدادات ذلك لأن هذه المعانى (الثانوية) دقيقة الطرق ، لطيفة المسالك ، ومن شأن الدقائق واللطائف أن يكون مجال الاختلاف والتفاوت بين الفاهمين لها بعيداً .

بخلاف دلالة نظم القرآن باعتبار معانيه الأصلية على هداياته ، فإنها واضحة قل أن يقع فيها خلاف أو تفاوت ، لأن هذه المعانى محدودة معينة يستوى فيها العربى والعجمى والحضرى والبدوى والذكى والغبى .

(١) انظر مناهل العرفان للشيخ الزرقانى ج٢ ص١٢٤ وما بعدها بتصرف

أما المعانى الثانوية فبحر زاخر متلاطم الأمواج ، تتجلى فيها علوم الله تعالى وحكمته وعظمته الإلهية ، وتظهر فيها فيوضات الله تعالى وإلهاماته العلوية على من وهبهم هذه الفيوضات والإلهامات من عباده المصطفين وورثة كلامه المقربين ، وأهل الذوق والصفاء من العلماء العاملين ، والحمد لله رب العالمين .

ونعود بعد ذلك إلى بيان منهج القرآن فى هداية البشر فنقول : —

إن هذا المنهج قد حرص كل الحرص على معالجة أمور جوهرية ، هادفا إلى تثبيتها فى النفوس أو تصحيحها وتقويمها إذا اقتضى الأمر ذلك ، ونحاول فى هذا المقام أن نبين أهم هـــذه الأمور ونستطيع أن نجملها فيما يلى : —

أولا : بيان حقيقة أركان الدين الثلاثة .

ثانيا : دعوة القرآن إلى تهذيب الأخلاق ورفعة الأعمال .

ثالثا : الحرص على الإصلاح الاجتماعى والوطنى .

رابعا : الحرص على الإصلاح المالى والاقتصادى بشتى الوسائل .

خامسا : بيان أصول الحكم السياسى الدولى .

وفى تفصيل كل من هذه الأمور وبيان كيف تناولها القرآن نقول وبالله التوفيق .

أولا : بيان حقيقة أركان الدين الثلاثة :

فيما يتعلق ببيان هذه الحقيقة التى دعا إليها جميع الرسل وربط الله تعالى بها سعادة البشر فى الدنيا والآخرة ، فإننا إذا استعرضنا آيات القرآن فى هذا الصدد وجدنا أن الله تعالى قد بينها فى قوله تعالى : (إن الذين آمنوا

والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)(١) :

وفيما يلي : الكلام على كل ركن منها بإيجاز .

الركن الأول : الإيمان بالله تعالى وحده :

وهو الركن الأعظم بين هـــذه الأركان ، وهو الذى ضل فيه جميع الأقوام والأمم حتى أقرب الناس عهداً بهداية الرسل وهم اليهود والنصارى ، فالأولون قالوا (عزير ابن الله) والآخرون قالوا (المسيح ابن الله) وهم بذلك يضاهئون ويماثلون قول الذين كفروا من قبل حين قالوا : إن الملائكة بنات الله .

وهنا يلاحظ أن الشرك قد عم الأرض بطوفانه المهلك ، وطغت الوثنية على جميع أهلها وساد الإلحاد والكفر .

فجاء القرآن الكريم على لسان خاتم الرسل أجمعين محمد بن عبد الله ، ﷺ ، يهدم معاقل الوثنية وحصونها المشيدة فى الأفكار والقلوب ، ويدعو إلى توحيد الله تعالى بطرق مختلفة وأساليب متنوعة ، وكانت أكثر المسائل تكراراً فى القرآن هى مسألة (توحيد الله) عز وجل فى ألوهيته : بعبادته وحده ، واعتقاد أن كل ماسواه من الموجودات ، ملوكاً كانوا أو عبيداً لايملكون لأنفسهم ولا لأحد دونهم نفعا ولا ضراً فقال تعالى (قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد)(٢) .

---

(١) سورة البقرة (٦٢) .
(٢) سورة الإخلاص .

وقال تعالى : (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم)(١) .

وقال تعالى : (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم)(٢) .

وقال تعالى : (هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم)(٣) .

ومن هنا ندرك أن ما جاء به القرآن في هذا المقام هو في باب الهداية أتم وأكمل من المعروف في سائر الأديان الأخرى ، وفيه صلاح لما أفسد أهل الملل من دين الأنبياء بما طرأ على كتبهم من الضياع والتحريف ، وما ابتدعوا من الأهواء والتقاليد .

ثم سارت آيات الإيمان بالله تعالى في القرآن تغذي جانب التوحيد ، وتصعد بأهل الإيمان والتوحيد درجات متفاوتة في السمو بمعرفته تعالى وأوله بحبه والتعمق في تقديسه وتنزيهه وتسبيحه وذكر أسمائه الحسنى ، وكانت هذه الآيات ممزوجة ببيان الأحكام الشرعية المختلفة تارة ، والأمر بالتوكل على الله والخوف منه لإجلاله أو لعدله تارة أخرى ، والرجاء في رحمته وفضله تارة ثالثة .

(١) سورة البقرة (١٦٣) .

(٢) سورة الحديد (٣)

(٣) سورة الحشر (٢٢ — ٢٤) .

الركن الثاني : الإيمان باليوم الآخر أو عقيدة البعث والجزاء :

وهذه العقيدة تمثل الركن الثاني من أركان جميع الأديان السماوية كما أفاد القرآن الكريم ، وهي في عرف الإسلام من لوازم الركن الأول وهو (الإيمان بالله وحده) بل لا يتم ذلك الركن إلا بهذه العقيدة .

وإذا علمت ما كان عليه مشركو العرب من إنكار البعث والجزاء حتى قالوا (أن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين [١]) وما كان عليه أهل الكتاب كذلك من فساد هذه العقيدة عندهم لتحريفهم كتبهم وبعدهم عن تعاليم دينهم الأصيل ، وكان فساد الإيمان بهذه العقيدة لدى المشركين وأهل الكتاب تابعا لفساد الإيمان بالركن الأول وهو (الإيمان بالله تعالى وحده) فكان محتاجا إلى الإصلاح مثله .

من أجل ذلك جاء القرآن الكريم الشريف بهذا الإصلاح فأعاد دين الأنبياء في الجزاء إلى أصله وهو ما كرم الله به الإنسان من جعل سعادته وشقائه منوطين بإيمانه وعمله الذين هما من كسبه وسعيه لا من إيمان غيره وعمله ، وأن الجزاء على الكفر والظلم والفساد في الأرض يكون بعدل الله تعالى بين جميع خلقه دون محاباة شعب على حساب شعب ، وليس كما يدعي اليهود من أنهم أبناء الله وأحباؤه .

كما أن جزاء الإنسان على إيمانه وعمله الصالح يكون بمحض فضل الله تعالى فالحسنة بعشر أمثالها وقد يضاعفها الله تعالى أضعافا كثيرة .

وقد نص القرآن على أن ما جاء به من إصلاح في هذا الشأن هو ما أوحاه إلى إبراهيم أبي الأنبياء المعروفين الذين يؤمن بهم اليهود والنصارى ، وإلى

---

(١) سورة المؤمنون (٣٧) .

موسى والأنبياء الذين جاءوا من بعده على شرعه فقال تعالى (أعنده علم الغيب فهو يرى ، أم لم ينبأ بما فى صحف موسى ، وإبراهيم الذى وفى ، ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى) (١) .

وإذا تأملت سور المفصل رأيت تكرار الكلام على البعث والجزاء فيها بما لا يخطر على بال بشر مع الاختلاف فى الأسلوب والنظم والفواصل لا سيما السور المتناسبة المتصلة كالمرسلات مع النبأ والنازعات مع عبس والتكوير مع الانفطار والمطففين مع الانشقاق) .

أثر الكفر بهذا الركن :

إن كفر الإنسان بهذا الركن يستلزم كفره بحكمة الله وعدله فى خلقه ويستلزم أيضا جهله بما وهبه الله من المشاعر والقوى والعقل ، وجهله بحكمة الله فى خلق الإنسان وجعله بهذا الخلق مستعدا لما ليس له حد ونهاية من العلم مما يدل على أنه تعالى خلقه لحياة أخرى لا حد لها ولا نهاية فى الوجود .

ومن لوازم هذا الكفر والجهل كله ، احتقار الإنسان لنفسه باعتقاده أنه خلق سدى وعبثا ، لا لحكمة جليلة بالغة ، وأن وجوده فى الأرض موقوت ومحدود بهذا العمر القصير المنغص بالهموم والمصائب والظلم والبغى والإثم قال تعالى (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) (٢) وقال تعالى (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ، فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم (٣).

---

(١) سورة النجم (٣٥ — ٤١) .

(٢) سورة القيامة (٣٦) .

(٣) سورة المؤمنون (١١٥ — ١١٦) .

الركن الثالث : العمل الصالح :

وهذا الركن أيضا لازم للإيمان بالله تعالى والإيمان باليوم الآخر ، وثمرة لهما كما أنه يحقق الإيمان بالله واليوم الآخر ، فكل من الإيمان والعمل يغذى الآخر ويقويه ، كما يتوقف كمال كل على الآخر فمن فسد إيمانه خسر عمله وكان رياء ونفاقا أو تقليداً صوريا ، فلا يكون العمل صالحاً مصلحا لعامله إلا بعمله على الوجه الذى شرعه الله لأجله .

وهذا العمل الصالح كثر الحديث عنه فى القرآن الكريم مرتبطا بالإيمان الخالص فى مواضع أكثر من أن تحصى أو تحصر .

وإنما كان العمل الصالح من لوازم الإيمان بالله فى الدرجة الأولى ، لأن من عرف الله تعالى عرف استحقاقه للحمد والشكر والعبادة والحب والتعظيم وكان من لوازم الإيمان بالجزاء على الأعمال فى الدرجة الثانية خوفا من العقاب ورجاء الثواب .

فالأركان الثلاثة يمد بعضها بعضا بمقتضى هداية الأنبياء الموافقة للفطرة الإنسانية .

ويدخل فى العمل العبادات المعروفة التى يتقرب بها إلى الله تعالى وسائر أعمال البر التى ترضى الله تعالى ، لما لها من التأثير البالغ فى إصلاح البشر كبر الوالدين ، وصلة الرحم ، وإكرام اليتامى والمساكين، وإغاثة الملهوف فضلا عن الأركان الأخرى كإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والوفاء بالعهد والصبر فى البأساء والضراء وما إلى ذلك .

وما جاء من القرآن الكريم جامعاً لذلك آيات سورة الإسراء: من قوله تعالى :

(وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ، ربكم أعلم بما في نفوسكم ، إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا ، وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا ، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا ، وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا ، ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ، فتقعد ملوما محسورا ، إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه كان بعباده خبيرا بصيرا ، ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ، إن قتلهم كان خطئاً كبيرا ، ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا ، ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ، وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ذلك خير وأحسن تأويلا ، ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ، ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ، كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها ، ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ، ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا)(١).

وآيات الوصايا في سورة الأنعام في قوله تعالى :

(قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا

---

(١) سورة الإسراء (٢٣ — ٣٩) .

الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ، ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفسا إلا وسعها، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ، وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون(١)).

وكذلك ما جاء فى سورة البقرة من قوله تعالى :

(ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون)(٢) .

إلى غير ذلك من آيات الحث على الفضائل والزجر عن الرذائل والمعاصى الضارة بالأديان والأموال والأعراض والعقول والأبدان .

ثانياً : سنة القرآن الكريم فى الدعوة إلى تهذيب الأخلاق ورفعة الأعمال .

علمنا مما سبق أن القرآن هو كتاب هداية لا كتاب فن وعلم نظرى، فقد أرشد المتفكرين فى آياته إلى داعيى الحق والخير ، والباطل والشر فى

(١) سورة الأنعام (١٥١/١٥٣).

(٢) سورة البقرة (١٧٧)

نفوسهم وكما أرشد المؤمن إلى كيفية تزكيته نفسه بمحاسبتها على أعمالها لتغليب الحق والخير والعدل على أضدادها .

وهذا المنهج القرآني قد اعتمد على أمرين هامين وهما :

١ — مجاهدة النفس بالتخلي عن اتباع الهوى .

٢ — التحلي بفضيلة التقوى وبيان ثمارها الطيبة في حياة الإنسان .

وقد تكرر في القرآن ، الحديث عن ذم الهوى والنهي عن إتباعه وتعليله بأنه يصرف تابعه عن الحق والخير والعدل في زهاء ثلاثين آية قرآنية .

كما تكرر ذكر التقوى والمتقين ترغيبا في هذه الفضيلة في زهاء مائتي آية أو أكثر .

ونكتفي هنا بذكر البعض في كل من الأمرين :

قال تعالى ذاماً ومنكراً اتباع الإنسان هواه وعبادته إياه (أفرأيت من اتخذ آلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون)(١) .

وقال جل شأنه (أرأيت من اتخذ آلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ، أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا)(٢) .

أما عن الأمر الثاني : وهو الدعوة إلى التقوى والتحلي بها فبعد أن أمر الله تعالى المؤمنين أمراً بالتقوى في كل الأمور مثل قوله تعالى (اتقوا الله حق تقاته) ، (اتقوا الله ما استطعتم) ، (اتقوا الله وآمنوا برسوله) .

(١) سورة الجاثية (٢٣)

(٢) سورة الفرقان (٤٣ ، ٤٤) .

ذكر الله تعالى للمؤمنين ثمرة التقوى ترغيبا لهم فيها وجذبا لهم نحوها، فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم)(١) .

ومعنى الفرقان فى الآية الكريمة الذى جعل ثمرة التقوى ونتيجة لها . هو العلم الصحيح والحكم الحق الذى يستطيع الإنسان بواسطته أن يفرق بين الحق والباطل ، ويفصل بين النافع والضار ، وبين النور والظلمة ، وبين الحجة والشبهة .

ومن أجل هذا الخير العظيم أمر الله تعالى فى مواضع كثيرة من كتابه تعالى باتقائه سبحانه كما أمر الناس أن يتقوا الشرك وأن يتقوا المعاصى وأن يتقوا الفتن العامة فى الدول والأمم ، وأن يتقوا الفشل والخـذلان فى الحرب .

وبين أن إرث الأرض فى النهاية إنما هو للمتقين كما أن الجنة فى الآخرة للمتقين فقال تعالى :

(ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون)(٢) .

وقال تعالى (والآخرة عند ربك للمتقين)(٣) .

وقال تعالى : (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب)(٤) .

---

(١) سورة الأنفال (٢٩)

(٢) سورة الأنبياء (١٠٥) .

(٣) سورة الزخرف (٣٥) .

(٤) سورة الطلاق (٢-٣) .

وقال تعالى (ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً)(١) .

وقال تعالى (ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا)(٢) .

بقي أن تعلم أن معنى التقوى العام هو : اتقاء كل ما يضر بنفس الإنسان وبنى جنسه القريب والبعيد وما يحول بينه وبين المقاصد الشريفة والغايات الحسنة ولذلك قال العلماء (إن التقوى عبارة عن ترك جميع الذنوب والمعاصي أو فعل ما يستطاع من الطاعات ، واتقاء الأسباب الدنيوية المانعة من الكمال لسعادة الدارين بحسب سنن الله تعالى في الكون ، هذا والحديث بقية نسأل الله تعالى أن يجعلنا من عباده المتقين المتبعين لهدي القويم وسنة نبيه الكريم ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

إعداد

أ . د / محمد بحيرى إبراهيم

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بالكلية

---

(١) سورة الطلاق (٤) .

(٢) سورة الطلاق (٥) .